الساق على الساق

في ما هو الفارياق

تأليف

أحمد فارس الشدياق

قدّم له وعلّق عليه

الشيخ نسيب وهيبه الخازن

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

١١

في الطويل والعريض

فلنرجع الآن الى الفارياق فانه هو ايضاً رجع الى حرفته وهي النساخة وان كان ذلك على غير مراده . واتفق اذ ذاك ان فتيَيْن من امراء ذلك الصقع ارادا ان يقرآا النحو على بعض النحاة وكان الفارياق يحضر الدرس وهو مكِبّ على النسخ . وكان احد التلميذين بطيئاً عن الفهم سريعاً الى الجواب . يتثاءب ويتمطى . ويغرض ويخطا . ويتناعس ويتقاعس ويتفاسأ ويتعاطس. واذا خُيّل له انه فَهِم مسألة حكّ تحت إبطه وشم رائحتها وكرف ثم قطّق كما يتمطّق من اقطه . ثم عربد من افتتانه . وسلق من وَلِيَه بلسانه . وقال ألا قبحاً لذوي الخواطر البليدة . والفطن البعيدة . كيف لا يتعلّم الناس كلهم فنّ النحو . وهو أسهل من حكّ ما تحت الحَقْو . أما والله لو كانت العلوم كلها مثله ، لما غادرت منها كبيراً ولا صغيراً إلا واستوعبته كله. لكني سمعت ان النحو انما هو مفتاح للعلوم ولا بعد منها فلا بدّ وان يكون غيره أصعب منه . فقال له معلمه لا تقل هكذا بل النحو أساس العلوم وكل العلوم مفتقرة اليه افتقار البناء الى الاساس. الا ترى انّ أهل بلادنا لا يتعلمون سواه ولا يعرّجون على غيره . وعندهم أن من تمكن منه فقد تمكن من معرفة خصائص الموجودات كلها . ولذلك لا يؤلّفون الا فيه . وانما يحصل الخلاف بينهم في تقديم بعض الابواب على بعض . وفي توضيح ما كان مبهماً منه بأدلّة وشواهد . واختلفوا أيضاً في الشواهد فمن قائل انها مفتعلة ومن قائل انها ضرورة أو شاذّة بيد أن المآل واحد . وهو ان العالم لا يسمّى عالماً الا اذا كان متمكناً من النحو مستقصياً لجميع دقائقه . ولا يكاد يستتب أمر الا به.

ولو قلت مثلاً ضرب زيد عمر منغيررفع زيد ونصب عمرو فما يكون ضر به حقاً ولا يصح الاعتماد على هذا الإخبار . فان حقيقة فعل الضرب متوقفة على علم كون زيد مرفوعاً . وجميع اللُّغات التي ليس فيها علامات الرفع فهي خالية عن الافاده التامَّة. وانما يفهم بعض الناس بعضاً من دون هذهالعلامات عن دربة أو اتِّفاق . فلا معوّل على كتبهم وان كثرت ولا على علومهم وان جلَّت . واني وان كنت قد لقيت منه عَرق القربـــة وكثيراً ما بت وبالي مشغول بعَقْلة من عُقلهوبداهية من عراقيله فكنت آرق ليلي كله ولا أهتدي الى وجه الصواب فيما عوص عليّ من ذلك الا اني استفدت منه فائدة عظيمة جعلتني ممنوناً لبنت أبي الاسود الدُّؤلي أبد الدهر فانها هي التي كانت سبباً في استنباطه . (قلت وكذا سائر البدائع كان أصل استنباطها مسبباً عن النساء) فقال له التلميذ ما هذه الفائدة يا أستاذي . قال قد طالما كان يخامرني الريب في قضية خلود النفس . فكنت أميل إلى ما قالته الفلاسفة من انه كل ما كان له ابتداء فهو متناهٍ . فلما رأيت النحو له ابتداء وليس له انتهاء قست النفس عليه فزل عني والحمد لله ذلك الابهام .

ومثله او اكثر منه في الصعوبة فن المعاني والبيان . فقال له التلميذ لم اسمع بذكر ذلك قط . قال اما انا فقد سمعت به واعرف كل مـــا يشتمل عليه . وهو المجاز والكناية والاستعارة والتورية والترصيع وغير ذلك مما ينيف على مئة نوع . وبيان ذلك مفصلاً يستفرغ أجلاً . وربما قضى الانسان عمره كله في علم الاستعارات وحدها . ثم يموت وهو جاهلها . او يكون قد نسي في آخر الكتاب او الكتب ما عرفه في اوله . وذلك ان من اخترع هـــذا العـــلم الجليل لم يكن سلطاناً حتى يمكنه اجبـار الناس جميعـاً على متابعته ومشايعته . بل كان فقيراً فأولع بهذا الشيء وشرح الله صدره لتقرير قواعد له فكان لا يقع بصره على شيء الا وخطر بباله طريقة من طرقه . فاذا نظر الشمس مثلاً طالعة قال كيف ينبغي ان يفهم هنا طلوع الشمس هل هو حقيقي او مجازي وهل المجاز هنا عرفي او لغوي . وكذا لو رأى البقل نابتاً في زمن الربيع قال كيف تأويل قول القائل انبت الربيع البقل . فهـل يصح اسناد

ذلك الى الربيع وهو انما نشأ عن دوران الارض حول الشمس فهو ولا شك مسبب عنها . ولا ريب ان مدير الارض انما هو الله عزّ وجلّ . فيكون قوله انبت الربيع البقل مجازاً بدرجتين . لان الربيع مسبب عن دوران الارض ودوران الارض مسبب عن تقدير الباري تعالى . وكذا قولهم جرت السفينة او الحجر . ومن المجاز ما له ايضاً ثلاث درجات ومنه ما له اربع . ومنه ما تفوق درجاته درج المأذنة . ومن هذا الدرج ما شكله قرقي ومنه حلزوني ومنه لولبي . ومنه غير ذلك ثم ما زال المستنبط يفكر في هذه البدائع حتى ادركه الاجل فمات وبقي عليه اشياء كثيرة لم يحكمها . فقام من بعده من اولع مثله بهذا الفن فاستدرك على سلفه مواضع كثيرة. وظل يباحثه ويعارضه الى ان قضى نحبه وقد ترك مجالاً لغيره . فجاء من بعده من اصلح بينهما في عدة مواطن وعاب على كل منهما ايضاً اموراً . ثم مات ولم ينه ما قصده . فخلفه من صنع به ما صنعه هو بغيره .

وهكذا بقيت ابواب النقد مفتوحة الى عصرنا هذا فمن قائل ان هذه العبارة من الاستعارة التبعية . ومن قائل انها من الترشيحية . قال بعض العلماء الاستعارة تنقسم الى مصرّح بها ومكنى عنها . والمصرح بها تنقسم الى قطعية واحتمالية . والقطعية تنقسم الى تخييلية وتحقيقية . وتنقسم ثانياً الى اصلية وتبعية . وثالثاً الى مجردة ومرشحة . وقال بعضهم وهذه تنقسم ايضاً الى عقيونية ومكائية ونبيصية وطمطمية وغميسية ولعلعية ويلمعية وعسعاسية . والعقيونية تنقسم ايضاً الى فرقعية وقرقعية ومقامقية. والفرقعية الى جحلنجعية وشنطفية وعطروسية ودمحالية وشينقورية وكربرية . والقرقعية الى خعخعية وعهعخية وعهخفية وكشعثجية وكثعظجية . والمكائية الى معوية وعنتريية وصفريية وعصلية وبلكية وصفارية وضغيلية وطرطبية وانقاضية . الى غير ذلك من التقسم . ويشترط في خطبة الكتاب ان تكون جامعة لجميع هذه الانواع . وان يراعى فيها وفي الكتاب كله نوع الطباق . مثال ذلك اذ قال القائل في فقرة طلع . فلا بدّ وان يقول فيها او في الثانية نزل . واذا قال أكل يقول بعده من غير تراخ تقياً او — وفي الجملة فينبغي ان تكون الخطبة

عويصة ما امكن . وايـــة خطبة لم تكن كذلك كانت عنواناً على ركاكة الكتاب كله فلم يكن جديراً بالمطالعة .

فقال له التلميذ وقد امتقع لونه وهل النحاة أيضاً ماتوا ولم ينهوا قواعـد هذا العلم . وهل قراءتي له عليك تغني عن اعادته عند غيرك هنا . وهل يجب على الطالب في كل بلد سافر اليه ان يتعلم نحو اهله ام هو عـلم مرّة واحدة . فقال له الشيخ اما عن المسألة الاولى فأجيب انه ماجرى على البيانيين فقد جرى ايضاً على النحاة . فقد قال الفرّاء أموت وفي قلبي شيء من حتى . وقد مات سيبويه وبقي في قلبه من فتح همزة ان وكسرها اشياء. ومات الكسائي وفي صدره من الفاء العاطفة والسببية والفصيحة والتفريعية والتعقيبية والرابطـــة حزازات . ومات اليزيديّ وفي رأسه من الواو العاطفة والاستئنافية والقسمية والزائدة والانكارية صداع وأي صداع . ومات الزمخشري وفي كبـده من لام الاستحقاق والاختصاص والتمليك وشبه التمليك والتعليل وتوكيد النفي وغير ذلك قروح وأي قروح. ومات الاصمعي وفي عنقه من رسم كتابة الهمزة غدّة . وفي الجملة فان معرفة حرف واحد من هـــذه الحروف اذا تعمد الطـالب استقصاءها وجب عليه ان يترك جميع أشغاله ومصالحه ويعكف على مـا قيل فيه وأجيب عنه . وما قيل من الامثال أعطِ العلم كلّك يُعطك جزأه الا لأجل ذلك . وأما قولك هل يلزم ان تقرأ النحو ايضاً على غير هنا أي في بلادنا فذلك غير لازم . فان اهل بلادنا كلهم لا يطالعون غير هذا الكتاب الذي تطالعه انت . بل قلّ من يطالعه ويفهمه أو يعمل بمقتضى قواعده . وأما عن سؤالك الثالث فأقول انه لا ينبغي إعادة هذا العلم في كل بلد ولكنك حيثما سرت وأيّان توجهت وجدت أناساً ينتقدون عليك كلامك . فان عبرت بالواو مثلاً قالوا الأفصح هنا الفاء او با وقالوا الاولى ام . وفي بعض البلاد اذا علم انك تنقط يآء قائل وبائع سقط اعتبارك من عيون الناس . فقد قرأت في بعض كتب الادب ان بعض العلماء عاد صديقاً له في حـــال مرضه فرأى عنده كرّاسة قد كتب فيها لفظة قائل بنقطتين تحت الياء فرجع في الحال على عقبه وقال لمن صار معه لقد أضعنا خطواتنا في زيارته .

وهذا هو سبب قلة التأليف في عصرنا . فان المؤلف والحالة هذه يعرّض نفسه للطعن والقدح والبـــلاء . ولا يراعي الناس ما في كتابه من الفوائد والحِكم . إلا اذا كان مشتملاً على جميع المحسّنات البديعـة والدقائق اللغوية ومَثَل ذلك مثـل رجل فاضل يدخل على قوم بهيئة رثة ورعابيـــل شماطيط . فالناس لا تنظر الى أدبه الباطني بل الى بزّته وزيه . والحمد لله على قلة المؤلفين اليوم في بلادنا ، إذ لو كثروا وكثر نقدهم وتخطئتهم لكثرت أسباب البغض والمشاحنة بينهم ، وقد استغنى الناس عن ذلك بتلفيق بعض فِقَر مسجّعة في رسائل ونحوها كقولك السلام والاكرام . والسنيّة والبهية . فأخفّه ما كان ساكناً . فأما الشعر في عصرنا هذا فانـــه عبارة عن وصف ممدوح بالكرم والشجاعة أو وصف امرأة بكون خصرها نحيلاً ، وردفها ثقيلا . وطرْفهـــا كحيلاً ومن تعمّد قصيدة جعل جلّ أبياتها غزلاً ونسيباً وعتاباً وشكوى وترك الباقي للمدح .

ثم ان التلميذ النجيب استمر يقرأ على شيخه الأديب في النحو حتى وصل الى باب الفاعل والمفعول فاعترض على ان الفاعل يكون مرفوعـــاً والمفعول منصوباً . وقال هـذا الاصطلاح فاسد لأن الفاعـل اذا كان مرفوعاً كان الذي عمل فيه الرفع آخر . والحال انه هو العامل . وبيانه انا نرى الفاعل في البناء يرفع الحجر وغيره على كتفه فالحجر هو المرفوع والفاعل رافع وكذلك فاعل الـ... فانه هو الذي يرفع الساق . فقال له المعلم مه مه لقد أفحشت ، فكان ينبغي لك التأدب في مجلس العـــلم فانه غير مجلس الامارة . ثم ختم التلميذان قراءة الكتاب ولم يستفيدا شيئاً وكأن الشرح كله كان موجهـاً الى الفارياق . ومذ ذلك الوقت أخذ في تجويد عبارته بمقتضى القواعد النحوية فصار يهوّل بها على رعاع الناس كما يظهر في الفصل الآتي .